

دين الولاء كمشروع أخلاقي لتجاوز تآزمات العصر "جوزايا رويس أنموذجا"

The religion of loyalty as a moral project to overcome the crises of the era "Josaya Royce model"

معافة فطيمة	عامر ايمان*
جامعة الحاج لخضر باتنة 1 (الجزائر)	جامعة 08 ماي 1945 قالمة (الجزائر)
Fatima.Maafa@univ-batna.dz	ameur.imene@univ-guelma.dz

ملخص:	معلومات المقال
تهدف هذه الدراسة الى ابراز أهم ما جاءت به فلسفة رويس المثالية، كإفراج أخلاقي لما آل اليه المجتمع الغربي الحديث، الذي انتهى به المطاف الى انسداد حضاري مصحوب بقلق أنطولوجي من مآزق الراهن ومزالقه الوجودية التي باتت تُورق الانسان المعاصر، ولم تكن هذه المآزق الا نتاج سطوة العقلية العلمية التي امتدت وصلباتها الكمية الى عروق الحياة والتي أقدمت على اختراق العالم الروحي وأقول كل ما يعلو عن الواقع، وأبرز ما تم التخلي عنه في الاوساط الثقافية المعاصرة هو الدين، الا أن سحق المثل العليا واتخاذ الواقعية المرجعية الوحيدة التي تتأسس وفقها علوم الانسان، وتتكون في ظلها عمليات فهم القضايا الوجودية، أدت هي الأخرى الى تآزمات أفنكت بالأبعاد الروحية للانسان، ما أدى الى اغترابها في ظل ثقافة لا تؤمن الا بخطابات الانبهار الفائق بالعلم الحديث، ولذلك تبرز لنا أهمية فلسفة رويس كمسعى فكري لمعالجة تآزمات الراهن، باعتبارها النسق المثالي الذي يلتحم في عمقه ما يبدو ضدا للآخر، نظرا الى أن الصراعات المحتمدة تتولد عن سيادة فكر على آخر، إذ لا بد من العودة الى الدين ومعاودة وصله أخلاقيا مع شؤون الحياة.	تاريخ الارسال: 2024/09/11 تاريخ القبول: 2024/12/08
	الكلمات المفتاحية: ✓ النسق المثالي ✓ البصيرة الدينية ✓ أخلاقيات الولاء
Abstract :	Article info
This study aims to highlight the most important aspects of Royce's idealist philosophy as a moral breakthrough about what modernist Western society had become and about how to face this civilizational impasse. The impact of the scientific mentality on man has led to a spiritual impasses and a crushing of ideals which in turn caused the negligence of many important spiritual dimensions. The Royce's philosophy may help in solving this spiritual crisis by providing an important ideal system that combines in its depth apparent contradictions by means of a necessary return to religious teachings which can be applied in practical life in order to face the current civilizational impasse.	Received : 11/09/2024 Accepted : 08/12/2024
	Keywords: ✓ The ideal format ✓ Religious insight ✓ Ethics of loyalty

❖ **مقدمة:** تعتبر الحضارة الأوروبية التي أعلنت ميلاد دولتها الحديثة في حالة انفصال مع العصر الوسيط، ثمرة انتصار الوعي العقلي العلمي على منظومة المعتقدات الايمانية المترمة التي كانت لها الغلبة آنذاك على الحياة الفكرية، نظرا الى أن العقائد الايمانية التي شهدتها الحقبة التاريخية التي سبقت زمنيا الحداثة الغربية والتي تعرف بالفترة القروسطية، قد فشلت في تقديم تفسيرات عقلية للطبيعة، اذ لم تعد ثمة امكانية للعقل البشري أن يستند اليها في مجابهة الواقع، واتخاذها منطلقا للتكيف مع ظواهره، ما ادى الى انهيار سلطة الدين الكنسي اثر اختمار الأزمات في دواخلها نتيجة عدم استجابتها لمتطلبات العصر، الذي شق طريقه للنور عن طريق درء كل ما تعلق بالتفسيرات الضبابية التي تعود بأصلها الى الخرافات والأساطير، والاحتكام للنظر العقلي المحكم، الذي يستمد فاعليته من خلال الاستناد القوة القواعد المنطقية الصارمة والتي تم ترسيخها من طرف العلم الحديث، ما أدى الى حدوث الشرح المعرفي وتعميق الهوية الاستيمولوجية بين العصر الحديث الذي بزغ فجره مع بوادر الممارسات العلمية لغاليليو وروجر بيكون، وبين العصر الوسيط الذي ركنت فيه العقول لتلاعبات الكنيسة والتي كرسست الدين لخدمة مصالحها الذاتية على حساب اغتيال كل المحاولات التي ترنو لالتماس الحق.

الا أن الثقة المفرطة في سلطة العقل التتويري والذي أصبح في حضارة لا تؤمن الا بخطابات المنطق العلمي الذي ينشد التطور وتحقيق التحسين باستمرارية فائقة، أدى هو الآخر الى تنزيل الروحانيات وتصعيد الماديات على حد قول "رونبيه غينون"، فنحن لسنا الا أمام حضارة مادية لا تؤمن الا بالواقعية زعما أن العودة الى ما يفوق الطبيعة مجرد منظومات متكلسة متحجرة لا ينتفع الاعتقاد بها الانسان شيئا، ما أدى الى خرق العالم الروحاني للإنسان نتيجة هيمنة العقلانية المادية على الأوساط الثقافية والحضارية وحتى الدينية، ليصبح المجتمع الغربي مجتمعا ماديا يكرس جهده ذاته لبلوغ آخر صيحات التطورات التقنية على حساب سحق المثل العليا، وبالتالي تم اقبار الروح الدينية وقيمها الأخلاقية ببراعة في عصر الانبهار بالخطابات العلمية الوضعية، ما أدى الى اغتراب العلاقات الانسانية عن ذاتها وسلبها ارادتها الحرة التي لم تنفك الا خاضعة للنتاجات المادية ووثنياتها المتصلبة.

لذلك تبرز لنا أهمية فلسفة الرويس كنسق مثالي لحل تأزمات الراهن الوجودية، التي كانت سببا في تباعد العالم الروحاني وأفوله، وتكريس العالم الأرضي فقط لبلوغ غايات نفعية متحررة

من كل الزام قيمي كتوجه علماني، فرويس لم يدخر جهداً لمعاودة طرح مسألة الدين وضرورة عودته مجدداً الى العالم الواقعي كبصيرة ايمانية مشبعة بحمولة القيم الخلقية التي تنفذ بنورها الى العالم الواقعي وتعيد هيكلته وفقاً لأنطولوجياتها الأخلاقية، لتصبح بذلك الواقعية في التحام وترابط ولقاء مستمر بالعالم الآخر عن طريق امتثال الذات الفردية للتعاليم الدينية السامية، إذ لا بد من معاودة نفخ روح الدين في أجساد المجتمعات الغربية لتجاوز أزمات الراهن، ومن خلال هذه التمهيد الذي اعتلى بحثنا يتسنى لنا طرح الاشكالية التالية: هل تمكنت مثالية رويس التي أعادت الاعتبار للدين ومعاودة بعث روحه الايمانية وأنطولوجيته القيمية في جسدية المجتمع الغربي، تحقيق الانعتاق فعلياً من تأزمات الراهن، لاسيما في ظل مجتمع لا يؤمن إلا بالفعل وفلسفة العمل؟ ولقد انبثق عن هذه الاشكالية الرئيسية لموضوع بحثنا جملة من الاشكاليات الفرعية أبرزها:

✓ هل كانت العودة للدين الى الساحة العمومية للمجتمعات الغربية بعدما كان مقصياً، نتاجاً لعدة اعتبارات اجتماعية وأزمات متعددة؟

✓ هل يمكننا الانعتاق من مأزق الراهن التي اخترقت العوالم الروحية للإنسان بفعل هيمنة النزوع المادي، من خلال عودتنا الى البصيرة الدينية وأخلاقيات الولاء التي تنشد في مطلقها عوالم أخلاقية تكون أكثر سلماً وتسامحاً وانفتاحاً؟

أما عن أبرز أهداف دراستنا فتتمثل في التماس جل ما يمكن اعتباره انفراجاً لتأزمات الوضع الراهن للمجتمعات الغربية الحديثة، نتيجة مآلاتها المادية اللاحادية التي أقدمت على استبعاد الدين من المجال العام، فما كان نتاج ذلك إلا الهتك بالأبعاد الروحية للإنسان وتشبيء علاقاته مع غيره ومع عالمه الذي يعلو واقعه، ونحن نجد إذ عدنا الى فلسفة رويس المثالية أبرز ما يمكن اعتباره حلاً معاصراً لمشكلات الراهن، حيث كرس رويس فلسفته المثالية لتحقيق فعل الانعتاق من وحل هذه الأزمات التي أصبحت تشكل قلقاً أنطولوجياً يهدد استقراره المجتمعات ويؤدي الى تفكك أوصارها الانسانية نتيجة التحيز للعوالم المادية وخطاباتها الوضعية على حساب سحق المثل العليا، ولقد أدى هذا التحيز لعالم على حساب عالم آخر الى توليد صراعات محتدمة بين الولاءات لمسائل وقضايا وتوجهات فكرية مختلفة، وفي ضوء هذا التضاد والتنازع والصراعات التي ترتبت عن سيادة وسطوة فكر على آخر تبرز لنا فلسفة رويس كنسق مثالي شمولي يلتحم فيه ما يبدو نقيضاً للآخر، من خلال اعادة التأليف الخلفي بينهما، فنحن إذ

عدنا الى عمق هذين الضدين نجد أن كلاهما ينشد الحق، ولما كان الحق واحدا كانت هذه المساعي المختلفة وعلى الرغم من اختلافها تنشد هذا الحق، وبالتالي اتخذ رويس من أخلاقيات الولاء كالزام خلقي وتبصر مشبع بروح المؤمن وعقل الفيلسوف في الان نفسه الرهان الذي لا بد من الاحتكام له من أجل بلوغ عالم يسوده السلام والتسامح والمحبة الالهية، فلا بد من ازالة كافة الفوارق بين الانسانية جمعاء من خلال توجيه ولاءاتها لقضية أسمى وغاية قصوى تتمثل في الخير المطلق التي تجسده الذات الالهية، ومن هنا يبرز لنا مدى التداخل والتقاطع بين شؤون الحياة الدنيوية التي لا بد وأن تنفذ ببصيرتها الدينية الى مناشدة القيم العليا.

ولقد اعتمدنا في دراستنا هذه آليات المنهج التحليلي لعرض وتحليل أفكار جوزايا رويس، وذلك لما يتماشى وطبيعة موضوع بحثنا.

❖ فلسفة جوزايا رويس ومظاهر التوفيق الديني والمنهجي:

■ العودة الى الدين: إنَّ الانبهار الفائق بالعلم والتقانة من قبل الانسان الحديث، والذي انفصل عن الدين الوسيط انفصالا عاما حتى لانقول كُليا، أي أن هذا الانفصال شمل عدة مجالات مختلفة وعدة حقول معرفية وعملية، لأسباب عدة تعود أغلبها الى التسلط الكنسي، الذي قيّد تفكير الانسان، وافتعل الجرائم باسم الدين، فأضحى الانسان الحديث يؤمن ايمانا مطلقا بقدرات العلم، إضافة الى سيطرة النزعة المادية، التي اكتسبت طابع المقدس والمؤله، والتخلص من قبضة الوصاية الدينية من خلال وضعها ضمن نطاق المهمش، وصار الاعتقاد الحقيقي مبني على مدى استجابة العلم لفضول الانسان، وتساؤلاته واحتياجاته فلا أحد يملك قدرة العلم ولا وصاية كوصايته، اذ يفتح آفاقا كبيرة لتحقيق الكثير من الأهداف التي يندفع بها الانسان الحديث نحو سيادة العالم.

إنَّ هذا الانفصال عن الدين جعل الانسان الحديث يعيش جملة من الأزمات الأنطولوجية وحتى الكونية، لأن الافراط المطلق في تقديس المادة جعل الانسان مجردا من انسانيته، ومُشتتا روحيا، ومشثئا، ومغتربا عن ذاته، وتلك نتيجة حتمية لمآلات الطابع الاستهلاكي للمجتمع الغربي الحداثي، الذي حال بينه وبين المعطى المعنوي والوجودي للحياة، فصار الانسان يعيش أزمات ثقافية وحضارية مصحوبة بشعوري الخوف و الذعر من مآزق الراهن ومزالقه الوجودية نتيجة الاحتكام الى البعد الأحادي للفكر الكمي الآلي (العقل العلمي)، الى جانب انتشار

العداوات المميتة، وهو ما عبرت عنه الحروب العالمية، ناهيك عن الطابع التسلطي للعلم عبر مختلف تقاناته ومجالاته الدقيقة والمعقدة، والتي شردت الانسان، مما دفع به الى حاوية الانهيار، وهذا بافتقاده للبعد الجوهرى للحياة، أو الجانب المعنوي فيها، أي الدين، والذي دفع الانسان ضريبة الابتعاد عنه، عبر قلق أنطولوجي وخوف سائل بالتعبير الباوماني، كون الانسان ذات مركبة من عدة جوانب، لا تقتصر على الجانب المادي فقط، وانما تحتاج الى تركيبها النفسية والمعنوية والثقافية والدينية، لمواصلة المسير ولمجابهة تحديات العصر.

يرى كمليف (2016) ان محور اهتمام الفلاسفة الوجوديون المعاصرين في ظل تأزمات العصر، هو البحث عن إمكانية خلاص الانسان، عبر العودة الى الدين، كعنصر مهم لإضفاء الطابع الروحي لوجودية الانسان، التي افتقدتها نتيجة عدة مآلات مادية، اذن تتجسد تلك العودة ضمن نقاش فلسفي ثري ومتداخل الجوانب يؤسس كمدخل لمجال مهم في الفلسفة، ألا وهو فلسفة الدين التي "تناقش في الغالب وضع الانسان المتعلم الذي يعيش في ظروف الحضارة الصناعية والعلمية المعاصرة، انها تبحث، من حيث الجوهر، ما اذا كان الانتماء لدين ما، وقبل كل شيء الانتماء للعقائد التآليهية، يعد اختياراً معقولاً، ومثبتاً بالنسبة لهذا الشخص" لأن الحضارة العلمية ساهمت في تدهور حالة الإنسانية جمعاء، ولابد من وجود الدين كعنصر مهم يضبط ذلك التدهور، فتتظر فلسفة الدين في حالة الانسان خاصة عندما يكون في كنف دين اختاره عبر قناعاته الشخصية، وليس عبر الاكراه، وأيضاً ليس لمجرد الاعتقاد فحسب، لأن الاختيار العقلاني، حسب حرية الشخص باستخدام عقله، يُكون أساس جديد له ويساهم في تنمية خلاصه الروحي الذي افتقده بسبب الطغيان المادي، وغياب المثالية الحقيقية، وان كانت فلسفة الدين قد اتضحت بوادرها في القرن الثامن عشر مع فيلسوف الأنوار ايمانويل كانط، الذي عقلن جميع حقول المعرفة، وينظر الى العقل بوصفه وسيلة للوصول الى كافة المعارف، لاسيما الدين، مُعتبراً أن الدين الحقيقي هو ذلك الذي يدركه الانسان إدراكاً حقيقياً، ويصل اليه بعقله لأنه أعلم الملكات، لأن العقل هو الذي يستطيع التمييز بين الصحيح والخطأ، وبين كافة المعارف، وبهذا تطلع فلسفة الدين الى التمييز بين علوم الدفاع عن العقائد، لترتقي الى مصاف عقلنة الدين.

والحديث عن علاقة الفلسفة بالدين هو حديث قديم نوعا ما لأن الفلسفة كثيرا ما استندت في موضوعاتها الى البحث في ماهية الدين عبر كافة عصورها، لكنها لم تتأسس كفرع قائم بذاته الا في العصر الحديث عبر ما طرحته تاريخية كانط، ونسقية هيغل، وشلينج، ويمكن تعريف فلسفة الدين على أنها "الدراسة العقلية للمعاني وللقضايا التي تطرحها العقائد الدينية وتفسيراتها للظواهر الطبيعية، وما وراء الطبيعة مثل وجود الله وقضايا الخلق والموت والمصير" (أورد في: النشار، 2015).

صرح كميليف (2016) أن فلسفة الدين تحاول توضيح كيف ولماذا يؤدي منطق العقلنة الى المعرفة الصحيحة في تناول القضايا الدينية، من خلال الفلسفة التأملية، لأن الفلسفة يمكنها تحديد وتفكيك المواقف الدينية عبر التعقل المفاهيمي للدين، وبالتالي فان الحديث عن "أزمة دين" في الفلسفة الغربية المعاصرة يتحدد موضوعها في سياق المناظرات عن الرصانة العقلية للبيان العقائدي الديني، وبصورة ملموسة فان الحديث يجري على معقولية واثبات، وعقلانية، و يقينية العقائد أو المنظومات الدينية. اذ تحاول فلسفة الدين البحث عن أهم الاختلالات التي تصيب الانسان المعاصر، نتيجة لغياب الديني، ثم ان أزمة غيابه تُشكل أرضية جديدة للتفلسف في الدين، ومبدأ لربط كل من الفلسفة والدين، والخروج بنسق كلي لعلاج الأزمة التي تخترق المجتمع الغربي من العمق، وهي أزمة دين وغياب الواسطة الروحية في الذهنية الغربية، مما أدى الى اختلال التوازن في حياة الانسان، ولا بد للفلسفة باعتبارها أداة علاجية للقهر الأنطولوجي، وللشكات الإنساني، أن تتدارك هذا الأمر، في سبيل التكامل الإنساني، يحظى دور الدين في أزمة الانسان الغربي المعاصر، بأهمية بالغة في تنظيرات الفلاسفة الوجوديون أو اللاهوتيون، أو المثاليون، وغيرهم، ولا سيما البراغماتيون، خاصة في مسألة العلاقة التداخلية بين الدين والفلسفة، ونشوء فلسفة دين انطلاقا من القاعدة نفسها، لعل أبرزهم نجد الفيلسوف الأمريكي البراغماتي جوزايا رويس، الذي شقَّ عن البراغماتية طريقا خاصا به، يختلف في توصيفاته عن طريقة زملائه البراغماتيين، اذ تنشأ العلاقة بين الدين والفلسفة في قراءته بوصفها علاقة توفيقية بينهما، عبر فلسفته المنطقية والذرائعية والتي اكتست بعدا مثاليا كذلك.

■ **المنعطف البراغماتي والمثالي ومسألة التوفيق في فكر جوزايا رويس:** تحتل البراغماتية تاريخاً طويلاً ومعلوماً في الفكر الأمريكي، الذي تبنى هذا المبدأ ورفض كل المبادئ الأخرى، خاصة المثالية، والتي تبناها رويس بالرغم من الانتقادات الذرائعية من قبل أقرانه البراغماتيون، حول إمكانية استخدام هذا المبدأ داخل بيئة لا تؤمن إلا بالعمل، بالرغم من ميله إلى المنطق الرياضي في بداياته، غير أنه كرّس معظم أعماله في البحث عن فلسفة الدين.

انهم رويس (2008) بالمثالية والبراغماتية عن طريق الوصل بينهما، مؤكداً على أن الفصل هو ضرب من التلاعب بالعالم الإنساني، بحيث أن هاتين الوجهتين المتعارضتين في النظر يكونان لنا قدرة على تفسير العلاقة بين اعتقادنا في العالم الطبيعي واعتقادنا في وجود عقول الآخرين، ويمكن التعبير عنهما بتسمية عالم الوجود كما يعرفه وعينا بعالم الوصف، وتسمية العالم بوصفه عالم الحياة بعالم التقدير. فالعالم له وجهتان متقابلتان، جانب مثالي وآخر عملي، ولا وجود لمصطلح واحد يوحد المفهومين معاً، لأن كل مفهوم قائم بذاته، ويكمل الآخر، ويستند إليه، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاعتماد على عالم واحد لدراسة الظواهر الإنسانية، ونجد هذين المفهومين متداولين عند كانط، النومان والفينومان، جنباً إلى جنب، ويؤكد رويس (2008، ص 41-42) ذلك عبر تسمية العالم المثالي بعالم الوصف، والعالم الطبيعي بالعالم التقديري، لاحتوائه على الطابع العملي. إذ يقول: "تتمثل قيمة المفهوم النظري لعالم الوصف في أنه وسيلة لتنظيم سلوكنا وتصورنا لما تسعى الإرادة إليه، لا تستطيع الإرادة أن تحدد المسار الذي يجب أن تتخذه بدون المفهوم المحدد لعالم الوصف" فكل فعل عملي يحتاج إلى التخطيط والتسيير المسبق، من طرف عالم الوصف المسؤول عن تنظيم الأفكار، فهما وجهتان متعارضتان من حيث المبادئ، لكنهما متفقان من حيث طبيعة العمل، وطريقة تسيير العالم، فهناك حقيقة باطنية للأشياء ندركها عبر التمعن الوصفي للأشياء ككل، لأن الطبيعة أيضاً لها وعي يُشبه الوعي الإنساني في ادراكها للموجودات.

وأكد رويس (2008، ص 42) أن الواقع "ماقترضه ارادتي وتطلبه. ويعد لهذا السبب وبمعنى معين الآخر الذي أسعى لتحقيق نفسي فيه وأحصل عليه...و أنه طالما يسعى

الانسان ويشعر بذاته تتحقق، تتطلب ارادته وجود الآخر الخاص بها" فعالمننا الداخلي من المنظور الرويسي مرتبط ارتباط وثيق بلقاء اتنا المستمرة مع العالم الخارجي، على اعتبار أن العالم الذاتي المفعم بالأفكار والتصورات المعنوية، ليس محض عالم يتألف من الصور الذهنية المجردة، لها وجودها الخاص المستقل عن العالم الخارجي، بل هي لحظات شعورية واعية تتضمن في دواخلها الرغبة في القيام بفعل ما، وبالتالي فهي تجربة شعورية واعية بما نرغب في القيام به، الا أن هذه الرغبة الشعورية تظل غير مكتملة الوجود الفعلي الذي يتداخل مع العالم الواقعي، الا اذا استندت الى ارادتنا التي تجسد منظومة الأفكار كأفعال تم تصورها من قبل فكرنا قبل حدوثه، والذي يأذن بحدوثه هو هذه الارادة التي يمكننا اعتبارها تسوق الفكرة (التي تتضمن هدف فعلي) من الامكان الى التحقق في الواقع المحسوس، لأن ارادتنا الكاملة التي نسعى اليها تعتمد على تحقيق مبادئ واقعية، فلن يرقى الانسان بمثاليته نحو تجسيد أشياء ومبادئ عملية، وانما يحتاج الى تحقيق ارادته في العالم الخارجي، فمفهوم الإرادة مرتبط دوما بالذات أو الأنا الذاتي التي تسعى دوما للانتقال الى الوعي المثالي أو العقل الكلي الذي ينزع نحو المطلق.

اعتبر رويس (2008) أن حدوث الثورة قد أدى الى تأصيل مفهوم العقل لأنه قادر على التعبير والتحكم في الوقائع، ووضع الخطط التي تتحكم في سير الطبيعة وظواهرها، كما يمارس العقل دوره في إعادة تشكيل المؤسسات الدينية والسياسية، طالما أن المقولات الفكرية هي المسؤولة عن فهم العالم. بما أن العقل هو أعلى ملكة لدى الإنسان، بإمكانه الادراك والاستنتاج والتحليل، فانه قادر على الوصول الى جُل الحقائق المطلقة، وكذلك الغايات المطلقة، وذلك عبر قدرته في تغيير الواقع، لأن أغلب الثورات التنويرية والتي قادها الانسان، عبرت عن اتصاله اتصالاً وثيقاً بالإرادة العقلية التي تمنح للفرد إمكانية التحكم في الأشياء ومعرفة الصواب من الخطأ، وبذلك يرتقي العقل من المدى التجريبي الى المدى الواقعي الذرائعي عبر قدرته في التغيير، والوصول الى الحقيقة.

ان طبيعة الحقيقة حسب رويس (2002، ص: 10) هي "عند المثاليين جدلية وشيء حي متطور، وليست مجرد شيء ثابت قابل للوصف، ولذلك يعتبرون فلاسفة براغماتيين"

قدم رويس توظيفاً أكثر وضوحاً للحقيقة المثالية، بعد ما اتهم الفلاسفة والنقاد قبله المثالية، على أنها ذلك الشيء اللاواقعي والماورائي، الذي ينغلق على ذاته ويطوف بأفكاره في سماء المطلق بعيداً عن الواقع الاجتماعي والخارجي عامة، وتعتمد على الوصف الظاهر للأشياء، لكنها عند رويس تعني كل فكرة تدل على الحقيقة، لأن مكان تجسد الحقائق هو الواقع، كما أن الحقيقة دوماً في تطور واستمرار، كما تعرف اختلافاً نسبياً، وهي تعبر عن وعي الإنسان الذي يتعامل به في الواقع الخارجي، وهي بذلك تعبير عن وجود طابع عملي، وذرائعي، يتوافق مع المبدأ الذي يُجسده الفلاسفة البراغماتيون، وبالتالي يتوافقان في أهم مبدأ جوهرى والذي يشكل أساس كل نظرية، وهو الحقيقة، لأن "أفكارنا الخاصة هي صحيحة، وصالحة بمقدار ما تتطابق مع مقاصد المطلق وبتعبير آخر مع الواقع، وهذا ما يسميه رويس الذرائعية المطلقة." (أورد في: ديلودال، 2009).

كما هو معروف أن البراغماتية تعني أن مقدار صحة فكرة ما هو مدى تحققها في الواقع، كذلك ينحاز رويس إلى هذا المبدأ العام في الفلسفة البراغماتية، ويؤكد على أن الواقع يتأثر بمقاصدنا، تلك التي تعبر عن تطابق أفكارنا مع الواقع، وهو ما جسده الذرائعية المطلقة والتي تنطلق من وعينا الذاتي متجهة نحو الواقع، والتي تُوافق بين البراغماتية والمثالية، ويرى رويس (2003) أن حل متناقضات العالم الخارجى ووجوده لا يتم إلا بتطبيق نظرية الجانب المزدوج، فكل شيء جانبه المادى والتقديرى، فإذا كانت الخبرة الإنسانية المشتركة هي الضمان الكافى لافتراض وجود المادة والطاقة، وأن كل حقيقة تقوم على المشترك والعام والقابل للوصف، فإن وجود هذه الحقيقة الكلية مُقدراً. بطبيعة الحال فإن نظرية الجانب المزدوج، توحد بين المثالى والذرائعى، لأن الحقائق العملية معلومة، يدركها العقل واللوجوس، لكنه لا يقدم لنا كل الحقائق، لأن هذه الأخيرة تحتاج إلى عالم تقديرى، ويكون اللوجوس صورة العالم لكن من ناحية مادية مُجسدة في الواقع.

هكذا اذن كانت النظرة المذهبية لجوزايا رويس هي التوفيق بين العالم المثالى والذرائعى، في نسق فلسفى متكامل، يؤكد على وجوب الجمع بين التيارين لتفادي

التناقضات التي تحدث في العالم، واستمرت فلسفته التوفيقية، الى التوفيق بين الفلسفة والدين، وتتعلق نقطة تأملاته هنا بالمبادئ التي تأسست عليها كل من الفلسفة والدين بالاستناد الى المطلق.

■ **الموقف التوفقي بين الفلسفة والدين:** ان الحديث عن وجود العلاقة بين الفلسفة والدين، هو أمر مُتجذر في البحث الفلسفي منذ ظهوره، وهذا ما يؤكد على وجود علاقة بينهما، خاصة من حيث التوافق والاتصال، اذن يؤكد رويس (2009) على هذه الخاصية، في فلسفته المثالية.

لاحظ رويس (2009) أن هناك غموض في عقول الناس عند الحديث عن الدين، فمنهم من يرغب في عبادة القانون الطبيعي، ومنهم من يجد أن الإنسانية أجدر بالتقديس الديني. اذن تعد مشكلة الدين حسب رويس مشكلة مثيرة للجدل بين أفراد المجتمع الغربي، فهي مشكلة يحفها سوء فهم كبير، واختلاف، وهذا ما يدل على أن الدين ليس كيانا متجاوزا وليس مجرد موجود خارج عن التفكير الجمعي للشعوب، وانما هو مساحة للتعبير عن الوجود الماهوي للأفراد، لكن الغاية المطلقة للدين، قد تسببت في غموض كبير بالنسبة للأفراد، بما أنهم ينزعون دوما نحو تحقيق مصالحهم الذاتية للوصول الى غاياتهم المطلقة، فكل فرد ينزع الى دين ما وجد فيه ضالته التي يبحث عنها، وينقسم الدين الذي يتدين به الانسان الغربي الى قسمين: دين طبيعي تاريخي، ودين وضعي، وضعه الانسان واعتقد به، ويضيف رويس (2009) أن أي فرد يعتقد بدين ما له غاية محددة، حسب تعبيره فانهم يرغبون جميعهم في أن يحدد الدين لهم واجبهم، ويوفر لهم الحماس للقيام به، ويشير لهم الى الأشياء الكائنة في العالم الواقعي التي يمكن أن تعينهم على تحقيق الولاء والإخلاص لواجبهم. يشكل الدين اذن قاعدة عامة للإيمان، ويفضي هذا الايمان الى وجود واجبات مُعينة يقوم بها الأفراد، للوصول الى الولاد الديني، عبر التقاني في واجبهم، لأن هذا الإخلاص يوصل الفرد الى مرحلة الاعتقاد الصحيح والتشبع الروحي، ويبتعد عن الاعتقاد العشوائي، الذي يجعل الشخص في متاهة من الفراغ والخلل، الذي هو سبب في إيصال الانسان المعاصر الى هاوية الأزمات التي يعيشها مؤخرا.

اذن فالدين كما ينظر اليه رويس (2009) يتميز بالطابع الأخلاقي الكامن في فكرة الواجب، "اذ يجب أن يكون على صلة بالسلوك، ويستحيل وجوده بدون غاية أخلاقية يدعو لها. حقيقة قد يوجد نوع من الأديان لايمت للأخلاقية بصلة، ولكنه يكون مثل سفينة غير صالحة للإبحار" بطبيعة الحال فالقاعدة الأولى للدين، هي وجود الطابع الأخلاقي الإلزامي ووجود الواجب الأخلاقي، الذي يكفل بوجود اعتقاد من قبل الأفراد، لأن الواجب له غاية ينشدها، ويتطابق الدين مع الأخلاق، لأن هذه الأخيرة تضمن وجود اطمئنان روحي وسكينة داخل الصدور، وبالأخلاق تنهذب سلوكات الأفراد وتصبح متوافقة مع البصيرة الدينية، أما عن الديانات التي لا تتيح التلازم الخُلقي، فهي ديانات غير صالحة للاعتقاد أو الوصول الى أي غاية كونية، ونجدها دوما خاوية المعنى، لأن الوجه الآخر للأخلاق كما وصفه رويس (2009، ص: 32) هو الدين، بحيث "يقدم لنا الدين ما هو أكثر من القانون الأخلاقي. ولا يعد القانون الأخلاقي وحده، أكثر ارتباطاً بالدين من القانون المدني، اذ يضيف الدين شيئاً ما للقانون الأخلاقي. وتعتبر الحماسة أول ما يضيفه الدين للقانون، فتجعل المؤمن ينظر للقانون الأخلاقي بنوع من الولاء والتقديس والمحبة" تظهر العلاقة بين القانون الأخلاقي والدين في تجسيد الغاية القصوى من الوجود، وهو تحقيق الحماس تجاه القانون المدني، والنزوع نحو الولاء للقانون المدني، بدلا من المشاعية والتمرد والفوضى، فيؤدي الفرد واجباته المعطاة له على أكمل وجه، للحفاظ على التوازن الاجتماعي، وهي الغاية القصوى من نظرية رويس المثالية، من خلال تأكيده على الطابع العملي للمثل الدينية، والتي تُحقق غايات عملية فعلية براغماتية داخل المجتمع، في ذات القصد نجد الفلسفة الأخلاقية الكانطية تؤكد على وجوب الواجب الأخلاقي أولا في تأدية المهام الشعورية والدينية، لكي يكون الضمير الحي فينا، على استعداد للنقاء الروحي، وبالواجب تأتي بقية القوانين الأخرى كالحقوق، وهو ما يدل على علاقة الدين الرويسي بالفلسفة الكانطية.

وفكرة الولاء هذه تعني الى حد بعيد أن الدين لديه لا بد وأن يخضع للإلزاميات الأخلاقية -أي الولاء الأخلاقي-، ولكن يلاحظ رويس (2009) أن الوسائل التي يستخدمها لتحقيق هذه الغاية تحوي نظرية كاملة الى حد ما عن طبيعة الأشياء وهو الجانب النظري، لذلك يكون الدين عمليا ووجدانيا ونظريا، يعلمنا كيف نسلك وكيف

نشعر، وما نعتقد به. فالدين الحقيقي حسب رويس ذلك الذي يتخذ من فكرة الولاء والانهمام بالواجب مسعى لبلوغ الغايات القصوى التي يجسدها الايمان الكامل بالذات الكلية واطلاقها، والتي تُوجه التعليمات الوصفية حول طبيعة الأشياء وما يمكن أن يحدث، وبهذا يكون الدين متكاملًا، بداية انطلاقته المطلق فيتموضع في فكرة الحماس الشعورية لتأدية الواجب، ومن ثمة التحقق الفعلي في الواقع الاجتماعي، لينفلت الدين من قبضة المثالية المحضة، ويجاوز بين كل ما هو عملي ومثالي.

أما بالنسبة للفلسفة فتتصل مباشرة بالدين من حيث مضامينها ومحتوياتها، وطالما أن الفلسفة تقترح قواعد عامة للسلوك، أو تقدم نظريات عن العالم، فلا بد أن يكون لها وجهة دينية، فيحتاج الدين لعقلانية الفلسفة، ولا تتجاهل الفلسفة مشكلات الدين، ولقد كانت مشكلات كانط الأساسية، ماذا أعرف وماذا يجب أن أتبع، ذات قيمة دينية لا تقل عن قيمتها الفلسفية. (أورد في: رويس، 2009). فقد بحثت الفلسفة كثيرا في المشكلات الدينية، عن الله والعالم وطبيعة الوجود، وأصل الاعتقاد ومشكلة الشر وغيرها، وشغلت مشكلة الحكمة صاحبة الشريعة هم الفلاسفة، فأنتجت لنا العديد من المواقف لعدة قرون، سواء في العالم الاسلامي أو الغربي، كما اهتمت فلسفة الدين بالبحث العقلاني عن أصل كل ما سبق ذكره، هذا ما يؤكد على أن الفلسفة بحث في الحكمة الدينية، ليس في مجال الدين فقط، وانما في معظم مجالاتها تصل الى نقطة الالتقاء بالدين، ويذكر لنا رويس (2009) أكثر الأسئلة شهرة في مجال الفلسفة وفي مبحث المعرفة بالضبط، وهي الأسئلة الكانطية، عن الغاية القصوى من معرفتي ووجهتي، والاجابة تكون عبر المعرفة الحقيقية اليقينية الدينية.

وأكثر ما يميز العلاقة بين الفلسفة والدين، هو وجود الفلسفة الدينية، فبالإضافة الى اهتماماتها النظرية، فهي تريد أن تعرف ما الذي يوجد بالعالم ويستحق العبادة والتقديس، فلا تسعى للحقيقة فقط وانما للحقائق الملهمة للروح، وتقنع بالحقيقة بدلا من الايمان الأعمى. فالتبصر والتعقل العقلاني الموجود في مبحث فلسفة الدين، يرفض الايمان الجاهز في قوالب معرفية تدخل ضمن تصورات العقل، الذي يرفض استيعابها

لكونها لا تمت للمنطق بصلة، لأن الدين الحقيقي يكون معتقدا بقناعة عقلية تامة، دون أي اكراه من تصورات مفارقة، أو مجرد الاتباع في الاعتقاد.

في العلاقة التوافقية أيضا حسب رويس (2009) فإنَّ النقد الصحيح لأساس الايمان والسلوك لازم، لأنه يُقوم مجموعة تصوراتنا التي نرغب في التأكد من حقيقتها، والشك واجب على كل باحث عن الحقيقة، ومن جهة تظهر لنا الحقيقة الفلسفية في صورة شكية. انَّ الشك المنهجي الذي بدأ مع الرحلة الديكارتية في الفلسفة، وانتشر في بقية المذاهب، هو عملية لإدراك الحقائق الفلسفية، وعدم المثل أمام الحقائق المعطاة لنا، فمعظمها مغلوطة، فالشك يصاحب التفكير الصحيح لتنقية المعطيات الوجودية من أي دوغمائية، ورحلة الايمان والاعتقاد أيضا، تظهر عبر الشكوك التي تتاب العقل في مرحلته الأولى من البحث عن الايمان، اذ يمنح الشك فرصة التمييز بين الخير والشر، والوصول الى اليقين الديني، والحقائق المثالية، وبهذا تتفق الفلسفة مع الدين في الشك المنهجي، باعتباره طريقا موصلا الى صُلب اليقين.

❖ البصيرة الأخلاقية ومبدأ الولاء (نحو عوالم أخلاقية أكثر سلما وتسامحا)

■ **دين الولاء (التأسيس الأخلاقي للإيمان العقلي):** تعتبر فلسفة الولاء كقيمة ومبدأ أخلاقي في فكر الفيلسوف المثالي الأمريكي المعاصر جوزيا رويس (2002، ص39) "الخيطة الناظم لفكره الفلسفي الأكثر شمولية، ومذهبه المثالي الأعرق طرعا ونظرا في قضايا عصره، فهي تشكل في أعماقها، الركيزة الفلسفية والأساس الثابت الذي تستند اليه فلسفته المثالية، فليس ثمة امكانا لتحقيق هذه الفلسفة فعليا الا من خلال عودتها الى فلسفة الولاء، باعتبارها الزاما أخلاقيا وأنطولوجية قيمية مشبعة بفكرة الواجب الأخلاقي، والمقصود" بعبارة فلسفة الولاء (...) مبدأ أخلاقي، لأن الفلسفة تتناول المبادئ الاولى، (...) فهو التقاني الارادي والعملي والدائم، من قبل فرد ما تجاه قضية معينة، فيتصف الفرد بالولاء، أولا، اذا كان لديه القضية التي يتجه بولائه لها، وثانيا عندما يهب نفسه لخدمتها طواعية، وثالثا عندما يعبر عن هذا التقاني والاخلاص للقضية، بطريقة عملية مقبولة، وبخدمة القضية بصورة فعالة ودائمة"، وبالتالي نلمس في فلسفة الولاء الرويسي ذلك الجانب العملي لفلسفته المثالية والتي تشكل في مجملها البوتقة التي تنصهر في

متونها كافة القضايا والمسائل، التي تظهر وكأنها متناقضات صلبة لا يمكن الجمع بينها، الا أنها حسب رويس لا تشكل في العمق الا كلا واحدا متكاملًا.

وبالتالي تعتبر الفلسفة والدين، وفكرة الواجب والايمان، والمثالية والواقعية، والفكرة والعمل، والنظر والتجريب، ضمن فضاء فلسفة رويس المثالية واستنادا الى أخلاقيات الولاء، حقيقة واحدة تؤدي بنا الى سكة التوازن والتوازن الاجتماعيين، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فان هذا الفعل التوفيقي الذي يسعى الى معاودة التحام ما يبدو ضدا للآخر، هو سعي دائم أيضا الى البحث عن المطلق الذي تم رفضه في أوساط الثقافة الأمريكية باعتبارها ثقافة تميل الى التجريب النفعي، أي أن الفكرة الصحيحة هي الفكرة التي يمكن التحقق منها واقعا وتعود علينا بالمنفعة، فهي فلسفة تستند الى مبادئ الطبيعة والواقعية وترفض العودة الى ما يعلو عن الواقع.

أما عن رويس فهو يرى في مثاليته تلك الامكانية التي تنفتح أكثر على العالم الواقعي، فهي في اتصال مستمر وتداخل تام بالحياة اليومية، وبالتالي نلمس في موقف رويس هذا رفضه للثنائيات الكلاسيكية التي تجعل العالم الخارجي وواقعية أشيائه في استقلالية تامة عن العالم الداخلي للأفكار المجردة، وافصاحه يقينا بأن توجهه المثالي يظل الأشد ارتباطا بالواقع وبالحياة العلمية، هذه الاخيرة لا بد من اعادة هيكلتها وتنظيمها وفقا لأخلاقيات والزامات تضبط في ظلها سلوكيات الأفراد، هذا من جانب ومن جانب آخر فان فلسفة الولاء وأخلاقياتها هي بمثابة الضمان العقلي الذي يساهم في ازالة كافة الفوارق الاجتماعية بين الافراد، نظرا الى أن تصادم المصالح وعدم التوافق بينها، هو ما يؤدي الى خلق التصارع والتفكك الاجتماعي، وبالتالي لا بد من انهاء صراع الولاءات استنادا الى مبدأ الولاء كأخلاق عقلية توجه هذه الولاءات الى غاية أسمى تتحد في ظلها ما فرقته المصالح الفردية، وتوجهاتها الأنانية، فالولاء هو قبل كل شيء ضمير أخلاقي يسعى الى توحيد الظاهر والباطن من خلال احياء منظومة القيم السامية، التي تُنمط الحياة اليومية، هذه الأخيرة حسب رويس باعتبارها تشكل في مطلقها شؤون الحياة الدنيوية لا تنفصل في أي حال من الاحوال مع القيم الالهية الدينية، وفي ذلك يتضح جليا ربط رويس بين الحياة الواقعية (الذات الانسانية النسبية) و القيم الدينية المطلقة (الذات الالهية التي تستغرق الوجود بأكمله) من خلال أخلاقيات الولاء، وهو

أشبه ما يكون بمثالية "وليم أرنست هوكنج" والذي كان تلميذاً لرويس، فهو "صاحب المذهب المثالي الذي يشبع فيه إيمان المتدين وعقل الفيلسوف في آن واحد (...) إذ أن السلوك البشري كله يقوم على أساس فكرة المنظور الزمني نحو المستقبل، فالأحقاب الأولى من الحياة البشرية تتطلع إلى مستقبل لا ينتهي" (أورد في: نبيه، 2016)، أي أن الذات الإنسانية في متن هذه المثالية إنما تتشد المطلق، الذي يتخطى محدودية الزمن الممتد إلى الخلود السرمدي، وبالتالي السعي الدؤوب والمتواصل نحو ذلك المستقبل المنفتح الذي يتوق فيه الإنسان استتعار الكيان اللامتناهي عن طريق الوعي الشعوري، وبالتالي خلق نسق كلي متكامل تكون البداية فيه الذات الإنسانية والروح الفردية التي هي لحظات من العقل الكلي وصولاً إلى الذات الإلهية المطلقة أي السعي نحو اللانهاية الذي يكتنف الوجود بأسره ويحيط بتفاصيله، ومن ثمة يكون السعي نحو المطلق هو سعي خلقي يستمد فاعليته هو الآخر من الغايات المطلقة، وهي غايات تقوم على مبادئ أخلاقية مجردة تتسم بالاطلاقية، على عكس الأخلاق النفعية لدى وليام جيمس وهي أخلاق براغماتية خاضعة للزمن مستمدة من الواقع المعاش، وقابلة للتعديل أي أنها معدلة زمنياً، فنتائجها غير ثابتة بل خاضعة للدينامية، ولما كانت فلسفة الولاء هي التقاني الإرادي التام من أجل قضية ما وكأنها قضية تخص الذات في حد ذاتها، وتعبّر عن كرامتها، كانت هذه الفلسفة بمثابة توحيد أخلاقي عقلاني متكامل بين الإرادة الإنسانية وبين القضايا التي تصبح بفعل مبدأ الاخلاص والتقاني المحض الذي يعتبر غاية في ذاته لا وسيلة، تعبيراً عن موقف الذات التي تنطق بلغة قضاياها.

ونحن نجد أمثلة متشعبة عن الاخلاص كقيمة أخلاقية وضمير إيتيقي يسمو إلى مناشدة عالم عقلاني، تزال فيه كافة المتضادات وتتوحد ضمن أفقه كافة الغايات، وذلك بفعل الإرادة الإنسانية التي تحوز على خاصية التحرر من كافة قيود الاكراهات، وتباعد عالمها عن وقع الضغط وعبء الصرامة واستخدام أساليب القوة والتسلط، كأن نجد الجندي الذي يتوق لانضمامه إلى الحروب من أجل استعادة سيادة وطنه، أو كالمتدين الذي يدفع أغلى ما لديه في سبيل نصرته دينه، والمواطن الذي تملؤه الرغبة في الدفاع عن وطنه وقضاياها، وبالتالي تصبح القضية هنا تشغل الذوات الفردية، والذي

يجمع هذه الذوات الفردية هو الاخلاص والضمير الخلقى، اللذين يتوقان الى تدشين عالم يتميز بالسلام الكونى، وفي ذلك قرر رويس (2002) أن الفرد عليه أن يعبر عن تقانيه كامل الارادة من أجل قضية معينة التي تتسم بالخير المطلق بالقول، "أنا خادم لهذه القضية، فهي قضية معقولة، ومرغوبة ولها قيمتها الخاصة، ولكونها تتصف بكل هذا، فلا أرى ولا أتحدث الا بما تأمر به، فاذا كان هذا موقفك، وفعلك الوحيد، تكون قد أدركت الشيء الذي تحيا لأجله، (...) والموقف العملي الذي تعبر به عن فرديتك، والذي يكمن فيه خيرك الشخصى الأقصى" يصبح عالم الفردية في ظل هذه المقولة التي تشع بالتعلل محاطة بالضمير الخلقى كالزام وكسلطة عقلية تسود الحياة الانسانية وتقود بها نحو تلك الغايات الأخلاقية وفضائلها النبيلة، التي تعتبر غايات قصوى للخير المطلق، فهذه الغاية هي التي تمنح الانسان معنى وجودي لذاته، من خلال ولائه لمسائل أخلاقية، وتكريس حياته للدفاع عنها، وهنا يتبين لنا بوضوح تداخل القيم الدينية السامية (الخير المطلق) بالأخلاقيات العقلية.

فرويس لا يتوانى أبدا في تقديم التأويل الأخلاقي للدين، وبالتالي كي نفهم القيم الدينية لديه لا بد وأن نقوم بإعادة فهمها تحت ضوء الأخلاقيات العملية، فليس ثمة توجه ديني منفصل عن التعاليم الأخلاقية ونظمها السمحاء، "فحين نتحدث عن الخبرة الأخلاقية فإننا نعني كل خبرة يعيشها الانسان تتطوي على مضمون ذي قيمة، ويحتم هذا بالضرورة أن تكون ثمة علاقة وطيدة بين الدين والنظام الخلقى، (...) فلا يكون المرء مؤمنا حقا ما لم يستمد أخلاقه من دينه، ويمكن تلخيص الوصايا الخلقية للدين باحترام الناس ومحبتهم، (...) كترجمة فعلية للإيمان بالله" (أورد في: نجوان، 2016) وبالتالي أي فعل اقراري بالدين يكون فعلا ازدواجيا للإقرار أيضا بالأخلاقيات، هذه الأخلاق تعتبر الجانب العملي الذي يجسد القيم الدينية المطلقة على أرض الواقع، وهنا يتبين لنا مدى الصلة الوثيدة والتداخل القيمي بين العالم المطلق ومثاليته اللامتناهية، والعالم الواقعي وزمنيته المتناهية.

حسب رويس (2007) ان مشروع المثالي هو مشروع قائم في أساسه على التحام الثنائيات من جهة ومن جهة أخرى بعث مقارنة تأويلية خلقية دينية للواقعية التي تتأسس في مطلقها على يقينيات المبادئ الأخلاقية الغارقة في التجريد، ما يمنح هذه

الأخيرة خاصة الاطلاق والثبات والخلود، والانسان بدوره يسعى الى هذا الخلود للذات المطلقة عن طريق التزامه بالنظم الخلقية، فدين الولاء الذي يشع بقيم المحبة والحكمة والتسامح، كقيمة خلقية لا تعرف سبيلها الى التحقق الا من خلال النزعة الايمانية بالقيمة الدينية العليا وخدمة مثلها المتعالية، "فحين تتأبر على القيام بالخدمة قد ينكشف لك الولاء ليس من خلال البصيرة الأخلاقية فقط، وانما من خلال البصيرة الدينية أيضاً" فالعودة الى القيم الدينية ومثلها المطلقة ومعاودة نفخ روحها في أوصار وعروق الثقافة المعاصرة التي شهدت تصلباً آلياً بفعل سطوة العقل الكمي الالي، بات أمراً ممكناً مع مثالية جوزايا رويس، خاصة وأن الحضارة الغربية المعاصرة أقدمت على اختراق المقدس والتخلي عن عبايته التي كانت تتميز بمساحة رهيبة من الاحترام والتبجيل، زعماً منها أن الثقة في الدين والعودة الى القيم الميتافيزيقية كانت سبباً في غرق الحضارة الغربية في وحل الحروب، وبالتالي كان لسيادة روح الفردانية وهيمنة النزعة النيوليبرالية على ساحتها الثقافية بمثابة الوضع الأكثر يقيناً به، الا أن ذلك أدى الى هشاشة رهيبة في الالتزامات الخلقية، وتشيء العلاقات الانسانية واغترابها عن قيمها الروحية والذاتية، وافراغ المحتوى الانساني من انسانيته، وأقول عوالمه الروحانية بفعل هيمنة النزوع المادي على حساب سحق المثل العليا، وفي ظل هذا العالم الالاحادي أصبح كل شيء مباح كما صرح بذلك الاديبي الروسي وعراب النفس البشرية "ديستوفسكي" قبل تصريح فيلسوف العدمية الألماني "فريدريك نيتشه" بنهاية وموت الاله، اضافة الى الفيلسوف الفرنسي "جون بول سارتر" الذي أقر هو الآخر بأنه بعد أفول الاله تأفل وتغيب معه كل الالتزامات الخلقية التي تضبط سلوكيات البشر، وبذلك أصبحت الارادة الانسانية حرة دون قيود، هذا الوضع العلماني دون شك أدى الى تشتت القيمة التي كانت تُنمط الحياة وبالتالي أصبحت المصالح متضاربة، والمجتمعات متصارعة، ما أفقدها توازنها وولد انفجارها قيميا وأخلاقيا.

ولذلك كانت مثالية رويس بمثابة الاحاح الشديد لإعادة الثقة في العوالم الدينية ومناشدة المطلق كانهراج لتأزمات الراهن الذي شهد صراعات بفعل تصادم التوجهات واختلاف الولاءات، التي أدمت وأفتكت بالوضع البشري خاصة بعد سيادة الاخلاق الفردانية وهيمنة النزعة النرجسانية، ولا سبيل لهذا الانفراج الا من خلال التبصر الديني

والتأسيس الأخلاقي لهذه البصيرة التي تنفذ بنورانيته الى العالم الواقعي، فمبدأ القيمة الأخلاقية هو الامتياز الوحيد الذي يضمن تحقيق السلام الكوني ومواجهة تحديات العصر.

ونجد اذا عدنا الى الفلسفة النقدية للفيلسوف الألماني "ايمانويل كانط" كما أشرنا سابقا، وبالتحديد الى الجانب العملي التطبيقي لهذه الفلسفة التي تعرف بالأنثربولوجيا العملية يتجلى لنا تأسيسه هو الآخر للدين الأخلاقي، وهو دين يستمد فاعليته من العقل لا النبوءة، حيث يرى كانط في ذلك أن الدين التاريخي هو الذي أدى الى الصراعات الطائفية والحروب العرقية، ولذلك لا بد من تأسيس الدين نظرا للتصور الكانطي، وفقا لمبادئ العقل الأكثر شمولية والأكثر معقولة للخروج من وحل هذه الحروب، فالإيمان العقلي لدى كانط يبنى وفقا للطبيعة الأخلاقية ومدى امتثالنا لواجباتنا الخلقية كسبيل لبلوغ السعادة، وليس ثمة سبيلا آخر غير هذا التعقل الديني، يبلغنا هذه السعادة التي تجسدها الزاماتنا الأخلاقية، كواجبات وكضمير يتسم بالنبل من أجل النبل في حد ذاته كغاية وكقيمة أخلاقية تسري في عروقنا، وبالتالي كانط لم يؤسس الايمان العقلي على تصور لله مستخلص من نظام الطبيعة، بل استنبطه من القانون الأخلاقي المسجل في قلب كل انسان" (أورد في: جان، 2017) لذلك فان كل فعل انساني يرغب في مناشدة الخير الأسمى والغاية الأقوم، لا يرى نوره من الامكان الى الفعل الا اذا كان بالفعل سلوكا أخلاقيا خالصا يستنبط من المبادئ العقل الكلية، ومن ثمة دشن كانط في مؤلفه الدين في حدود مجرد العقل نقدا للأديان التاريخية وأسس أخلاقيا لدين مُعقلن يتماشى ومبادئ العقلانية العامة، وفكرة الواجب الخلقى لبلوغ السعادة التي اعتبرها كل من الخطيب الروماني "شيشرون" وفيلسوف المسيحية القديس "أوغسطين" الغاية النهائية للجنس البشري، هذه الغاية النهائية التي تمثل الخير المطلق أي (الله)، هي التي يجتمع فيها كل من الأخلاقيات التطبيقية والزاماتها القيمية من جهة ومن جهة أخرى فضيلة السعادة، فلا يمكن بلوغ هذه السعادة أخلاقيا الا اذا سعينا الى بلوغ المطلق، الا أن الفيلسوف المثالي صاحب الدراسات الثيولوجية "فريديريك شلايرماخر" الذي عني بدراسة الله كحدس لا متناهي الاطلاق (احساس يستغرق كل شيء)، يرفض هذا الاختزال الذي يصب الدين في الافعال الأخلاقية وحسب، حيث

يرى شلايرماخر أن أفعالنا بما في ذلك تلك الأفعال التي تتسم بالتقوى على اختلافها وتتووعها هي أفعال تابعة للوجود الكلي (الله) وبالتالي نحن لا نعي ذاتنا المتدينة وحسب بل نكون في وعي بعلاقتنا مع الله أيضاً، فالدين لدى شلايرماخر هو حدس بالذات المطلقة، أي معرفته معرفة مباشرة وهذه المعرفة تتسم بالكونية والشمول، فهي تشمل حدس الكون بأكمله وتتخذ في ذلك أسمى أشكال التسامح و المحبة والكرم كأفعال تابعة لله وكلحظات منه، هو دين "ينفتح على كل أشكال الحدس واللاهائي، ترون أي تواضع جميل وأي تسامح ودود وكرام ينبعان من مفهوم الدين" (أورد في: جان، 2017) فالتجربة الدينية تتأسس حسب شلايرماخر وفقاً للإحساس المطلق بالوجود كلية على اعتباره لحظات لا تتجزأ من الكل المطلق.

■ **مبدأ الولاء وإيتيقا التسامح:** يمكننا اعتبار الأخلاق العقلية في خضم مشروع رويس (2007) التوفيقي، الدعامة الفلسفية الأكثر رصانة والمبدأ الفكري الأكثر ثباتاً لدراسته المعاصرة، والتي تطرح ذاتها كحل لمآزق الراهن، ومما لا شك فيه أن جوزايا رويس لم يدخر أدنى جهد لإبراز الطابع المثالي الكلي لهذه الأخلاقيات التي تتداخل والحياة اليومية، ويمكننا استجلاء ذلك من خلال ما يسميه جوزايا، بالروح المخلصة وهي تلك الروح التي تجسد مبدأ الاخلاص على أرضية الواقع، حيث يعتبر الاخلاص كتفاني وكتضحية من قبل الفرد الغاية الأنبل التي يتميز بها الفرد في ضوء المشروع الأخلاقي الرويسي، فأن نحيا حياة كريمة نسخرها لخدمة الغايات الأعظم هو ما يجسد لنا الروح المخلصة التي تبرز لا في المواقف الحاسمة فقط بل تبرز لنا جليا في الحياة الواقعية، ذلك لأنها مدربة ومهيئة أخلاقيا لمجابهة الواقع وتحدياته، هذه المواجهة حسب رويس هي مواجهة تتسم بالعقلانية والخير لاسترجاع الحقوق الضائعة وللدفاع عن القضايا التي تمس بكرامة وقيم الانسانية، على عكس الولاءات الأخرى التي تركز جهد ذاتها لخدمة الغايات الشريرة التي تسعى الى فرض السيطرة والاحتكام لأساليب العنف والتسلط على الآخرين، وبالتالي تتجلى لنا أهمية الروح المخلصة لدى رويس، في الاستعداد التام لمجابهة الموت في سبيل الوفاء لقضيته حيث لا يخشى أبدا كافة أنواع التهديدات والمخاطر التي قد تؤدي بحياته وذلك من أجل نصرة ما عليه من حق، حيث "تفوق هذه الروح كل شيء، تطالب الفرد بالقيام بواجبه، لا تبحث عن الثروة أو المجد

بل تتمثل في الهزيمة أحيانا، هكذا كان نيوتن حين فشل في اثبات نظريته عن حركة العمر والزمن واستمر في عمله دون التسرع في فرض تفسيرات عامة، حتى تبين له التطورات الجديدة في العلم ما كان ينقصه".

وبالتالي تصبح هذه الروح المخلصة بمثابة الامتثال الكامل للقيم الخلقية المثلى - التي تعتبر همزة وصل بين العالم الدنيوي والزائل والمتناهي الذي يتوق للعودة الى العقل الكلي والأبدية، والعالم المطلق اللامتناهي - لا لبلوغ غاية نفعية، أو لمناشدة أمر دنيوي زائل، بل لبلوغ الغايات القصوى التي تجسد لنا مدى تفاني المرء وتضحيته من أجل ترجيح كفة الخير على كفة الشر، هذه الأخيرة يمكننا اعتبارها واقعة وحدث يقف في المقابل من المساعي الخيرية التي تتشدها الروح المخلصة. ولذلك يسعى الفرد المخلص من خلال عودته الى المعايير الخلقية التي تضبط أفعاله وسلوكياته رسم معالم عوالم أخلاقية يتم فهرستها وإعادة هيكلتها وفقا للقانون الأخلاقي العام، وبالتالي تصبح الروح الفردية لهذه العوالم تتمثل في مطلقها لفكرة الواجب الخلقى لا لشيء الا لينعم العالم بالسلام والتواؤم الاجتماعيين، فالروح المخلصة المتفانية في عملها وفعلها هي بمثابة النزوع القيمي المُشبع بدلالات الإخلاص وما يردفها من معاني المحبة، والحكمة، والتسامح، كمفاهيم تجسد ارادة أصحابها في مجابهة الشرور الصادرة عن الارادات التي تسخر ذاتها لولاء الشر.

أكد رويس (2008، ص 254) أنه لا يمكننا تقديم "تفسير الحوادث الشريرة في حياتنا الانسانية، اذا نظرنا لها فقط بوصفها تعبيراً زمنياً عن ارادة محدودة لفرد معين، ويعود وجودها الى الطبيعة العامة للوجود الزمني، السبب في ذلك أن وجودها قد يرجع الى ضخامة خططنا ومثالياتها، أو الى أنها مجرد تعبير عن نية سيئة أخلاقيا لبعض الناس أو لعدم اخلاص الفاعل الخلقى لمثله العليا وعدم كفاءته" نلتمس رفض رويس الصريح للبحث عن أصل الشر أو البحث عن المصدر الذي تتبع عنه الأفعال الشريرة، كما يرفض كذلك الفصل بين نظامي الخير والشر، وعلى الرغم من تضادهما الا ان رويس يرى أن نظام الشر كشكل من أشكالاً للأخلاقيات، -الأخلاق السيئة- يعتبر جزء

لا يتجزأ من النظام الزمني للطبيعة، وهو ذات النظام الذي يجمع بين قطبي الخير والشر، فالشر حسب رويس كحادثة زمنية محدودة متناهية-مرتبطة بنظام الطبيعة المعرضة للفناء-، هي حادثة لا بد من وقوعها لكي يتم فعل التكفير عنها، وتصويب سلوكيات هؤلاء الافراد الذين ينزعون الى احداث فعل الشر، وبذلك يجتهد رويس لخلق منظومة أخلاقية تسعى الى تقويم وتصحيح مسار العمليات اللاأخلاقية التي يغلب عليها طابع الشر، ومن ثمة يتضح لنا عدم فصله في هاتين المسألتين (الخير والشر) كنظامين للوجود، فالشر هو ظاهرة محدودة ومتناهية نظرا لارتباطها بالواقع ونظامه الزمني المتناه، أما الخير فهو مرتبط بالغايات الأولى والسعادة الأبدية، وهذا ما انطبعت به فلسفته المثالية التي انصهرت ضمنها ما يبدو في ظاهره نقيضا للآخر.

فليس ثمة عالمان من وجهة نظر رويس (2003) منفصلان بتاتا في النظام الوجودي، بل ثمة شر-يصدر عن أفعال غير سوية للبشر باعتبارها خطأ يتم ارتبائه في حق الآخرين والذي يؤدي الى أذيتهم -كواقعة محدودة يجب مواجهتها أخلاقيا، وخير أنطولوجي تسعى اليه من خلال السعي المتواصل لخدمة القيم الدينية السامية، ولتحقيق الارادة الالهية، فالخطيئة حسب رويس هي ملازمة للجنس البشري، وهي بتجسيدها واقعا لا تؤذي الفرد الذي ارتكبت الجريمة الاخلاقية في حقه وحسب، بل هي قضية انسانية يتأذى بها جميع الناس، بأذية ذات الفرد المقصودة بالشر، ولذلك تصبح هذه الافعال الخاطئة التي ترتبك في حق الآخرين قضية تشغل كل انسان انساني، اذ لا بد على الانسانية من شد أواصر التعاون الخلقي للحد من خطورة هذه الافعال كتكفير عنها أولا، ومجابهة خطاياها أخلاقيا ثانيا، حيث لا يمكننا درء الرذائل الا من خلال ترسيخ الفضائل في ذهنية الأفراد، وتربية سلوكياتهم وفقا لنموذج القيم الحق، ولذلك "يؤكد رويس منذ البداية بأن من لم يعترف بوجود الشر والمآسي في العالم مثلما يعترف بخيريته وكماله لن يحقق لنفسه الراحة والسكينة"، ذلك أن وجود الشر في العالم وكل ما يترتب عنه من خطايا من المنظور الرويسي رويس (2009) هو ما يولد الشعور الانساني العميق للتكفير عن ذنوب هذه الخطايا، ولو لم أكن مثلاً أنا

المقدم على ارتكابها، هذا الوعي الشعوري بمسألة الشر هو الذي يبعث روح الشراكة في عروق الانسانية، فتصبح القضية هنا قضية كونية تشغل الناس جميعا، وكلما سعى الانسان للتكفير عنها شعر بالسعادة اثر خدمة الغاية الخيرية السامية.

فلولا وجود الشر لما استشعرنا قيمة الخير ولما سعينا الى بلوغ الخير المطلق، فالشر والشعور بالأذية والأسى والحزن هي لحظات وجودية تشكل محطة رئيسية من حياتنا لا بد وأن نعبرها أخلاقيا من أجل تحقيق الخلاص، أي الخلاص من شوائب الرذائل وتسربات الخطايا للعودة الى أحضان الروح المطلقة -كلحظة من لحظات الصفاء الروحي-، التي نستدل واقعا على وجودها، ولذلك " يمكن أن تصحبنا المسلمات الدينية، ونهتدي بها، وتجعلنا نرى كل ما يظهر في الخبرة الحياتية، على أنه درس جديد لمعرفة عقل الله، (...) ان التصور الذي قد أحصل عليه من التجربة عن حقيقة الخير والجمال، والحياة الفاضلة التي قد أتخيلها، والخير الكامل، الذي يمكنني أن أتصوره كل ذلك ليس الا عبارة عن لمحات عن الحقيقة الكبرى التي تكون متحققة بالفعل لدى الله الذي يعرف كل شيء"، فالروح المطلقة حسب رويس تعتري الوجود بأسره، والنظر التأملّي والتعمق به في مظاهر الحياة اليومية ما هو الا تجليات لهذا العقل الكلي، وبالتالي تعتبر البصيرة الدينية التي تشع بالروح الايمانية نورا نهتدي به في أنفاق وممرات الحياة الواقعية وصولا الى مصدر هذه النورانية، التي تجمع حسب النسق الرويسي المثالي بين عقل الفيلسوف -الذي ينشد الحقيقة- وايمان المتدين، وكلاهما سبيلين لبلوغ الحق.

تعتبر البصيرة الدينية لدى رويس تبصرا ينفذ به الى التماس الحق الكلي والوحدة الروحية الشاملة، وهذا الالتماس من المنظور الرويسي لا يكون فعلا اختزاليا البتة لأنساق الايمانية المختلفة، فينصهر ما لا يؤمن به فيما يؤمن به، لتصبح العقيدة واحدة، بل يرى رويس أن الاختلاف والتمايز العرقي والتنوع الشيولوجي هو الأمر الأقوم الذي يجب تعميمه على كافة العوالم الايمانية. لكن ما يتبادر الى أذهاننا في خضم هذا التنوع الديني، هو الانحياز التطرفي للنزعات العقائدية التي يؤمن بها الافراد، ما يولد الصراعات الطائفية، أين تطغى روح الكراهية وتسود النزعات الدغماتية على حساب

الاقرار بالتعايش الديني، ورفض تبني المحبة الالهية كقيمة خلقية تسعى الى جذب الارواح المخلصة التي تقدر التضحية الذاتية للقضايا الايمانية، وتقدر أيضا التضحية لما يخالفها في توجهها الديني، وبالتالي لا سبيل للاعتراف باختلاف وتمايز هذه العقائد على اختلاف مصادرها الايمانية، وتشعباتها الاثنية والثيولوجية، الا بفعل الارتهان للتسامح الديني.

فأن تسود المجتمعات ثقافة التسامح كقيمة دينية تترأس فعل الانفتاح الثيولوجي على الأنساق الايمانية الكبرى المغايرة لها ضرورة لا بد من الاحتكام اليها، وبالتالي تبرز لنا فلسفة الولاء في هذا الصدد تسامحا دينيا يسعى الى تدشين عوالم مفتوحة على بعضها البعض، يحترم فيها المؤمن عقائد غيره، ايمانا منهم أن هذا التنوع على اختلافه ليس الا سبيلا تجتمع فيه الغايات التي تنشئ الوحدة الكلية للروح المطلقة.

❖ **خاتمة:** من خلال عرض فكرة التبصر الديني والفكر الولائي، والتي تقع ضمن محاور فلسفة الدين عند الفيلسوف المثالي البراغماتي جوزايا رويس، يمكن أن نستنتج النقاط التالية:

✓ علينا الاعتراف أولا وقبل كل شيء بأن المشكلة الحقيقية التي انفتحت عليها الفكر المثالي الرويسي، هي مشكلة حضارة الانسان المتأزمة، من خلال نماذج الذعر والقلق الأنطولوجي، الذي أصاب الانسان الذي أفرط في الإنتاج العلمي النقائي، متناسيا هويته وذاته التي تحتاج الى الدين كدعامة أساسية، نعتمد عليها في حياتنا اليومية، وهي محاولة تجسد للطابع الإنساني في فكر رويس، ذلك الذي يبحث عن الأخلاق الخيرة للإنسان.

✓ تمكن رويس من اتباع الحقائق المثالية ضمن نسق فلسفي، يُجاوز بينها وبين الفلسفة البراغماتية، ويوحد بين الإرادة والفعل، وهذه المحاولة التي تربط بين النظر والعمل هي محاولة توفيقية لربط كل ما هو فكري بالعمل، لأن الانسان يحتاج الى البراكسيس في حياته، ليبتعد عن الصراعات التي يمكن أن تنشأ بفعل المذاهب المغلوطة، والتي تنزع نحو المفارقات التي ليس لها حلول واقعية.

✓ لعل المسألة التوفيقية بين الدين والفلسفة، هي مسألة معلومة فلسفيا، والتي أعاد رويس احياءها، عبر عدة منطلقات وروابط متينة بين الفلسفة والدين، كون المشكلات الدينية تثير التساؤلات الفلسفية المحيرة، فتكون الإجابة عبر الخوض في ميدان فلسفة الدين، لأجل التعقل والتبصر الفلسفي.

- ✓ تأتي مشكلة الولاء فلسفيا، كمحور لفلسفة الأخلاق ككل، عبر التقاضي الأخلاقي المرتبط بالإرادة، التي تقوم سلوك الفرد، وتقوم سلوكه، لينتج عن ذلك التشعب الأخلاقي الذي يتصل مع الإرادة الخيرة، بدون أي تردد، ليستهدف القيم العليا وهذا ما يؤدي الى الصفاء النفسي، والذي يجعل الانسان متصالحا مع ذاته ومع الآخر.
- ✓ ان الفكرة الرويسية عن الولاء، تسمح بطرح أكثر عقلانية، وهو البعد عن التناقض القائم بين عالم الإرادة وعالم التواجد في العالم، لأنه فرصة تتموضع فيها الذات في مكانها الصحيح، عبر الأفعال الأخلاقية السامية كالتسامح والحب والخير، الذي يتجه مباشرة نحو تحقيق قضايا تشغل الهم الاجتماعي، وتُجسد الخير للذات وللغير، وبهذا تتحقق الأخلاقيات العملية التي ترتقي بالإنسان وتنتشله من مشكلاته الكونية، ليعايش حاضره.
- ✓ ومع ذلك، تبقى فلسفة رويس مثال عما يمكن للإنسان أن يبلغه من توافق بين عالمه المثالي والواقعي، ليستخدم النظر في إدراك ما يحصل له، وتحليله تحليلا فلسفيا لإيجاد حلول للمشكلات التي ترتبط بزعة قيمه الإنسانية من قبل متغيرات الزمان، وتلك هي مهام المثالية الواقعية التي ترفض الامتثال للمثل العليا فقط، وانما تدفع بالإنسان الى ضرورة التبصر الديني والولاء الأخلاقي، للبعد عن الفراغ الأنطولوجي، والنزعة المادية المتطرفة.

❖ قائمة المراجع:

1. أناتولوفيتش، كمليف (2016). فلسفة الدين الغربية المعاصرة. سوري: دار البلد.
2. جوزايا، رويس (2002). محاضرات في المثالية الحديثة. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
3. جوزايا، رويس (2003). روح الفلسفة الحديثة. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
4. جوزايا، رويس (2008). العالم والفرد 2. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
5. جوزايا، رويس (2009). الجانب الديني للفلسفة. بيروت: المركز القومي للترجمة.
6. جبار، ديلودال (2009). الفلسفة الأمريكية. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
7. جوزايا، رويس (2007). مصادر البصيرة الدينية. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
8. جوزايا، رويس (2002). فلسفة الولاء. القاهرة: المشروع القومي للترجمة.
9. جوزايا، رويس (2003). روح الفلسفة الحديثة. مصر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
10. جوزايا، رويس (2008). العالم والفرد الطبيعة الانسان النظام الخلقي 2. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
11. غروندان، جان (2017). فلسفة الدين. بيروت: مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
12. فتحي محمد، نبيه شعبان (2016). الفلسفة المعاصرة اتجاهاتها وأشهر روادها. مصر: كلية الآداب جامعة كفر
13. مصطفى، النشار (2015). مدخل جديد الى فلسفة الدين. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
14. نجاح الجدة، نجوان (2016). فلسفة الدين. بيروت: مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة.